مسائل في القدر

تأليف

صقر بن نزهان بن عبيد الروقي

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ يسِّر وأعن

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال تعالى في سورة آل عمران: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}

وقال تعالى في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}

وقال تعالى في سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}

أما بعد.

فإن من المعلوم، أن مسألة القدر، من المسائل التي كثر فيها الحديث، وتشعّبت فيها الآراء، واختلفت فيها المفاهيم، وكثرت فيه الشروح والتوضيحات، فمن مصيب ومن مخطئ، حتى بلغ ببعضهم أن أنكر القدر، وبعضهم حكم بالإجبال أو الجبر، وبعضهم أمسك عنه فلم يجيء فيه بخبر.

ولكوني قد أزمعت أن أبحث عن هذا الأمر بنفسي، طلباً للحق، واتقاء للمزالق التي وقع فيها غيري، مهتديا بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد

أزمعت أن أقدم لكم ما توصّلت إليه من خلال ذلك، سائلا المولى عز وجل، أن أكون قد أصبت الحقيقة، واهتديت إلى صراطه المستقيم.

وهنا تنبيه لا بدّ منه.

وهو أنه لا يمكم معرفة الشريعة الإسلامية إلّا من خلال القرآن الكريم، الذي هو كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز رحيم، الذي فيه الهدى والحجة، وفيها البيان والمحجّة. ثم من خلال السنة النبويّة المطهّرة، التي هي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، المكلّف من الله تعالى ببيان القرآن وشرحه.

فأما القرآن فهو نصّ قطعي الثبوت، لأن الله تعالى تكفّل بحفظه، فهو القاضي على كل شيء، بل القاضي على السُنّة أيضاً.

لأن السنة نصّ ظنّي الثبوت، لذلك تجد فيها الصحيح والحسن والضعيف والضعيف جدا والموضوع والشاذ والمنكر. ولا ترتقي السُنة إلى مرتبة قطعي الثبوت إلا إذا توفّر فيها شرطان:

الأول: صحّة السند، بأن يكون سنده مسلسلاً بالثقات.

والثاني: صحة المتن، بحيث لا يتعارض مع القرآن تعارضاً لا يمكننا معه الجمع بينهما، أو يتعارض مع الأحاديث الصحيحة الأخرى، تعارضا لا يمكننا معه الجمع بينها، فإذا تعارض مع القرآن فهذا دليل صريح على بطلان متن هذا الحديث، وإذا تعارض مع أحاديث صحيحة أخرى، نُظِر إلى أقواها إسناداً، أو من له شواهد تدل على ترجيحه من الأحاديث الحسنة أو الضعيفة ضعفاً يسيراً.

وهذا هو مذهب أهل السنة إن شاء الله تعالى، وليس هذا من مذهب أهل البدع والأهواء في شيء، ذلك أن مذهب أهل السنة، هي غربلة الأحاديث بالقرآن

والأحاديث الأخرى، بينما مذهب أهل البدع والأهواء، هو دفع النصوص الشرعية بالرأي والهوى والكلام والفلسفة، ومحاولة التشبيه على الناس بالاحتجاج بأنها تخالف القرآن الكريم، ولكنك تجد ادعاءاتهم باطلة، وحججهم واهية، فتعلم أنهم لم يردّوا الحديث لأنه يخالف القرآن الكريم، بل لأنه يخالف أهوائهم!

ومثله ما روي عن الصحابة والتابعين، فإن فيه الصحيح والحسن والضعيف والضعيف جدا والموضوع والشاذ والمنكر، فنحتاج أولا لنقد إسناده، فإن كان صحيحا، عرض على كتاب الله عز وجل، وعلى ما صحّ وقُبِل من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن خالف شيئاً منها مخالفة لا يمكننا معه الجمع بينها، أسقطناه، وإن وافقها قبلناه.

لذلك فمنهجي في هذا الكتاب، الاعتماد أولا على القرآن الكريم، وأما الأحاديث، فإني انظر فيها، فإن كان سندها ضعيفاً أو ضعيفاً جدّاً أو موضوعا أو كان صحيحا أو حسنا، ولكنه خالف القرآن والأحاديث الصحيحة مخالفة لا يمكنني معه الجمع بينها، فقد حكمت بعدم صحة متنه، وإن كان سنده صحيحا.

وفي الختام، أنبه على أن هذا الكتاب جهد بشر، يصيب ويخطئ، فإن كان ما فيه صوابا فالفضل لله وحده لا شريك له، وإن كان خطئا فمن نفسي والشيطان واستغفر الله العليّ العظيم وأتوب إليه

.

المسألة الأولى في خلق الأنفس

الله تعالى خلق الأنفس لا تعلم خيرا ولا شرا ولا حقا ولا باطلا ولا طاعة ولا معصية.

فألهمها، أي: جبلها على معرفة الخير والشر، وجعلها تميّز بين الحق والباطل، والطاعة والمعصية.

قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]

أي: ألهمها، ومعنى ألهمها، أي: جبلها، على معرفة الخير والشر، فيمكن للعبد معرفة الخير والشر والتمييز بينهما بما أوتي من عقل وفطرة.

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد]

والنجدين هما طريق الخير والشر والحق والباطل والطاعة والمعصية، وهداية الله تعالى للعبد قد تكون بما جبله الله عليه من معرفة الخير والشرّ والحق والباطل والطاعة والمعصية، أو بما أرسله الله تعالى من الرُسُل، وأنزل من الكتب.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١)﴾ [البلد]

أي: يقول الله تعالى، أني بينت لعبادي الخير والشر والحق والباطل، بما ألهمتهم به من المعرفة، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب، يأمرون الناس بطاعتي وينهونهم عن معصيتي، ويعضونهم، فلا أهتم بعد ذلك إن لم يقتحموا العقبة، لأني لم أقصّر عليهم بشيء.

فمن الأنفس من تقبل الخير والحق والطاعة، ومنها من تقبل الشر والباطل والمعصية، ومنها من يخلط بين هذه الأمور خلطا عجيبا فيستكثر من أمر ويستقل من أخر!

والله أعلم.

المسألة الثانية في فطرة الأنفس

الله تبارك وتعالى فطر الأنفس على دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَالِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم]

فقوله تعالى: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفاۚ﴾ دليل على أن الدين الحنيف، هو الفِطرَة التي فطر الله الناس عليها، وفيه دليل على ضلال من أخطأ في تأويل الفِطرَة من العلماء.

والحنيفية هي ملّة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾ [آل عمران]

وعن عياض بن حمار المجاشعي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه، أنه قال: "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا".

رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء".

رواه مسلم.

ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: "ويأسلمانه" فدل هذا على أن دين الفطرة، هو دين الإسلام، وهو الحنيفية السمحة.

وهذا لا يعني أن المولود يولد وهو عارف بجميع الشرائع، بل المراد بذلك، أن المولود لا يبلغ سنّ التمييز، حتى يدرك ثلاث مسائل، وهي: أن له رباً، وأن ربّه في السماء، وأن ربه هو الملجأ والملاذ عند النوائب. وهي المسائل التي يدركها المخلوق بفطرته، كما جعله قادر على التمييز بفطرته بين الحسن والقبيح والخير والشر.

والله أعلم.

المسألة الثالثة في تخيير العباد

الأصل في أفعال العباد أنها على التخيير، في كل شيء، في اعتقادها وأقوالها وأعمالها.

فللعبد مشيئة وهبها الله تعالى له ليشاء بها ما يشاء، فله أن يختار طريق الخير والحق والطاعة، وله أن يختار طريق الشر والباطل والمعصية، وله أن يخلط بينها كما يشاء.

قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)﴾ [المدثر]

وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ [التكوير]

ومشيئة العباد تابعة لمشيئة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير]

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومعنى ذلك: أنه لا يقع شيء من مشيئة العابد إلا بإذن من الله تعالى بذلك، فلا يمكن للمخلوق أن يصنع شيئا رغماً عن الله تعالى وتقدس. فالعباد قد يشاءون الشيء فلا يشاءه الله، فلا يقع ما شاءه العبد، لذلك قال أهل العلم، أن استطاعة العبد على فعل الشيء، مقرونة بفعله له، فإذا عمله، علمنا أنه مستطيع لذلك، وإن لم يعمله، علمنا أنه غير مستطيع له، لأن العبد قد يشاء أن يفعل الشيء، فلا يمكنه الله من

فعله، فيكون العبد غير مستطيع لفعل ما يشاء فعله، لأن الله شاء ألّا يقع ما شاء العبد أن يوقعه.

قال تعالى عن السحرة وسحرهم: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ (١٠٢)﴾ [البقرة]

أي: أن السحرة اختاروا الكفر وعمل السحر، فلم يجبرهم الله تعالى على الهداية، بل أضلهم، وتركهم في غيّهم يعمهون، فإن شاء الساحر أن يسحر شخصاً، فإن سحره لا يمكن أن يؤثر في المسحور، إلا بإذن الله تعالى، فإن لم يأذن الله تعالى أن يضر السحر المسحور فلن يضرّه، وهذا معنى كون مشيئة العباد تابعة لمشيئة الله تعالى.

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الإذن، ليس إذن إباحة، بل هو إذن تفويض بفعل ما تشاء، على وعد من الله تعالى، أن من عمل خيراً سوف يجزى به، ومن عمل شراً سوف يجزى به.

وفي المسألة الأولى والثانية والثالثة، وما حوته من أدلة من الكتاب والسنة، ردٌ قاطع على الجبريّة والمجبلة، الذين يزعمون أن العبد يخلق مجبوراً أو مجبولاً على الكفر أو الإسلام.

والله أعلم.

المسألة الرابعة أن الله يجبر عباده على ما يشاء

مع أن الأصل في أفعال العباد هو التخيير، إلا أن الله تعالى قد يجبر العباد على ما يشاء، سواء في اعتقادهم أو أقوالهم أو أفعالهم، خيراً للعبد رحمة منه وفضلاً، أو شراً للعبد عقوبة وعدلاً.

فقد يريد العبد فعل الشرّ، فيعصمه الله منه، ويمنعه من فعل ذلك، لمحبة الله له، ولعلمه سبحانه أنه لا يليق بمثله أن يفعل مثل هذا الفعل.

كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف]

وقد يريد العبد فعل خير، فيثبطه الله عنه، ويحرمه من فعله، لبغض الله تعالى له، ولمعرفته بأنه لا يستحق أن يقوم بهذا العمل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦)﴾ [التوبة]

ولذلك سمّى الله تبارك وتعالى نفسه بالجبّار، الذي لديه القدرة الكاملة على إجبار عباده على ما يشاء.

هذا في المسائل الدينية، وكذلك يقع في المسائل الدنيوية.

والله أعلم.

المسألة الخامسة في أن الله أعلم بعباده من أنفسهم

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾ [الأنعام]

فمن علم أنه يريد الخير والحق والطاعة هداه إليها، ومن علم أنه يريد الشر والباطل والمعصية هداه إليها، وأضله.

قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيراۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة]

قوله: ﴿ٱلْفَاسِقِينَ﴾ أي: من يريدون الشر والباطل والمعصية.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ [الرعد]

قوله: ﴿أَنَابَ﴾ أي: أراد الخير والحق والطاعة.

فالله تعالى لا يضل إلا من علم أنه لا يريد الخير والحق والطاعة، ويهدي إليه من كره طريق الشر والباطل والمعصية.

فإن مريد الهداية ومريد الضلالة لا يهتدي كل واحد منهما إلى مراده ومبتغاه إلا بإرشاد من الله تعالى.

فهذا كرجلان يسيران في طريق أحدهما يريد مدينة الخير والأخر يريد مدينة الشر، حتى بلغا مفترق الطريق، فلم يهتد كلاهما لمعرفة الطريق الذي يؤدي به إلى وجهته، حتى يكون هناك من يرشد كل واحد منهما إلى الطريق الذي يريد، فالله هو من يرشد الناس إلى طريق الخير والحق والطاعة وإلى طريق الشر والباطل والمعصية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّة وَاحِدَة وَلَاكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [النحل]

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَناۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾ [فاطر]

فمعناها: أن الله علم من فلان من الناس أنه يريد الهداية فشاء أن يهتدي فهداه للحق، وعلم من فلان أنه يريد الضلالة، فشاء أن يضل، فهداه إلى الباطل، وأضله عن الحق.

فالله تعالى لكمال عدله، لا يضل إلا من علم أنه يريد الضلالة، وأما برحمته، فهو يهدي من يشاء. ولا يمكن أن يكون هناك عبد من عباد الله تعالى يريد الهداية فيحرم منها، الله أرحم وأكرم وألطف، هذا ظننا بربنا.

لذلك أضل الله تعالى إبليس عن السجود لآدم، وحرمه الخير والحق والطاعة، لما علم في نفسه من الكبر والخبث والكفر، ولهذا قال إبليس لعنه الله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] لأن الله تعالى لو شاء لجبره على الهداية، ولكنه أغواه وأضله عدلاً منه سبحانه وتعالى، وجزاء وفاقا.

والله أعلم.

المسألة السادسة أن المخلوق لا يتوب حتى يتوب الله عليه

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

وذلك أن الله تعالى إذا علم من العبد خيرا، وأنه يستحق المغفرة، تاب عليه، ثم هداه ووفقه إلى التوبة، فيتوب العبد، فالتوبة توفيق من الله تعالى للعبد، لما قدمنا أن الله تعالى أعلم بعباده من أنفسهم.

والله أعلم.

المسألة السابعة أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمُۢ (٧٥)﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يعلم ما كان في الماضي.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه]

ويعلم ما يكون في الحاضر.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد]

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ أي: معكم بعلمه.

ويعلم ما يكون في المستقبل.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء]

فأخبر سبحانه وتعالى بما سوف يقع منهم قبل أن يقع، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

ويعلم ما لن يكون إذا كان كيف يكون.

قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

فأخبر سبحانه وتعالى، أن أهل النار لو ردوا إلى الدنيا، لعادوا إلى ما نهو عنه من الكفر، مع أن هذا لن يكون.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَة فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَاب مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَالِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِير (٢٢)﴾ [الحديد]

فأخبر الله تعالى أنه ما من كائنة في الأرض ولا في أنفس الناس إلا وقد كتبها في الكتاب، من قبل أن تخلق الأرض والأنفس.

وهذه المسألة فيها رد على القدرية، الذين يزعمون أن الله لا يعلم بما سوف يقع في المستقبل حتى يقع.

والله أعلم.

المسألة الثامنة أن جميع الأحاديث الواردة في القدر إنما تدل على سعة علم الله تعالى

أن جميع الأحاديث الصحيحة المقبولة التي جاءت في القدر، إنما جاءت لتقرير هذا المعنى، وهو أن علم الله أحاط بكل شيء.

فليس في هذه الأحاديث أي إشارة إلى أن الله جبر عباده أو جبلهم على الكفر أو الإسلام، أو الشقاء أو السعادة، أو الغنى أو الفقر، ولكنه جبرهم على أمر واحد، أنهم لا بد أنهم ميّتون.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَالِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّت □ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر]

والله أعلم.

أنه بناء على ما سبق من أدلة، فإن القدر: مشتق من التقدير، والمراد به هنا: هو توقع ما سوف يحصل من الحوادث في المستقبل.

فالله تعالى قبل أن يخلق الكون الذي نعيش فيه، علم لكمال علمه ما سوف يقع في هذا الكون من بدايته وحتى نهايته، وقضى، أي: حكم، بوقوع ما سبق في علمه أنه كائن في هذا الكون، ولو شاء الله لمنع ذلك، ولجبر الحوادث على أن تكون على ما يشاء أن تكون، ولكنه أذن بوقوع ما سبق في علمه أنه واقع، فخلق القلم والكتاب، وأمر القلم بأن يكتب ما سبق في علمه أنه كائن في هذا الكون، من بدايته وحتى نهايته في الكتاب، من غير حاجة منه لذلك، ولكن علم الله سبحانه وتعالى، أن عباده عاجزون عن إدراك كمال صفة العلم فيه، لذلك كتبه في الكتاب، لكي يطمئن عباده أنه لا يضل ولا ينسى.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه]

فإذا وقع من العبد فعل أو قول أو اعتقاد، فهذا لا يعني أن الله تعالى أجبره على ذلك، بل الأصل أنه غير مجبر، وقد يجبره الله تعالى على شيء من ذلك، لحكمة يعلمها هو سبحانه.

ومثال ذلك: أن العبد قد يتوقع حدوث شيء في المستقبل، فقد يقع وفق ما قدر له، وقد يقع قريبا منه، وقد لا يقع، للنقص الحاصل في علم العبد، ولكن هل لو وقع الشيء وفق ما قدر العبد له، فهل هذا يعني أن العبد أجبر الشيء على الوقوع وفق ما قَدّرَ له؟ الجواب: لا، وإنما قدر العبد وقوع الشيء، فوقع الشيء وفق ما قَدَر له.

إذا، معنى القدر العام: هو علم الله الأزلي، ومشيئته النافذة.

علم سبحانه وتعالى، ثم شاء، ثم كتب، ثم خلق الخلق على ذلك.

والله أعلم.

فقد احتج القدرية على قولهم بآيات متشابهة من القرآن، فمما احتجوا به:

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَالِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)﴾ [المائدة]

وقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٦٦)﴾ [الأنفال]

ونحو هذه الآيات.

فظنوا أن معنى الآيات أن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه، تعالى الله علوا كبيرا.

والعجيب، أنهم تجاهلوا ما يخالف هذا المعنى من الآيات!

فتأويل الآيات التي احتج بها القدرية، هو أن مراد الله تعالى بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفٗاۚ﴾ ونحو هذه الآيات، ليس المراد به أن الله تعالى كان يجهل حالهم قبل وقوع الفعل منهم، بل مراده بذلك علم الفِعَال.

فإن العلم علمان: علم تقدير، وعلم فعال.

فالله علم ما هم عاملون قبل أن يعملوه، علم تقدير، فلما عملوه، علم أن ما سبق في علمه أنهم عاملوه، قد عملوه.

هذا هو الحق إن شاء الله في تأويل الآية.

والله أعلم.

المسألة الحادي عشر في الردّ على شبهات الجبريّة

فمما احتج به الجبريّة على بدعتهم، ما ذكره الله تعالى من كتابة المقادير وتعلق مشيئة العباد بمشيئته سبحانه.

وليس لهم في هذا حجة، لأن الله تعالى إنما أراد بإخبارنا أنه كتب المقادير قبل أن يخلق الخلق، اطلاعنا على سعة علمه، وإحاطته بكل شيء، وأخبرنا بأن مشيئة العباد تابعة لمشيئته، ليعلمنا بأن عباده لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا مما يشاؤونه إلا بعد أن يأذن لهم، فليس أحد من عباده قادر على أن يفعل ما يشاء رغماً عن الله تعالى وتقدس.

وقد خرج من ضئضي الجبرية قوم لم يستسيغوا التصريح بالقول بالجبر، لشدّة قبحه، فأرادوا أن يأتوا بقول أخفّ وقعاً على الأنفس، فزعموا أن العبد مجبول على الشر والباطل والمعصية، ومعنى الإجبال عندهم، أي: أن العبد يفطر منذ ولادته على الشر والباطل والمعصية.

وهؤلاء المجبلة، أمرهم أهون، لضعف حجتهم وسقوط قولهم، فهم جبرية متقنعون لا أكثر، حتى أن منهم من صرّح بالقول بالجبر، ومنهم من قال: لولا أن الله تعالى لم يذكر الجبر في كتابه لقلت بأن العبد مجبور! ووالله لو وصف أحدهم بذلك لعدّ ذلك مذمة له، ولكنه لا يستحي أن يصف ربه بذلك!

وقد تقدم الرد عليهم.

وهؤلاء الجبرية أمرهم أعظم، وشبهتهم أقوى، لأنهم يتكئون على آيات متشابهات، وأحاديث مشكلة.

وقول الجبرية أشنع وأقبح من قول القدرية، ذلك أن القدرية وصفوا الله تعالى بما لا يستقبح وقوعه من البشر عادةً، وأما الجبرية فقد وصفوا الله تعالى بما يستقبح وقوعه من البشر!

فقد علم بدليل العقل الصحيح والفطرة السليمة، أنه لو أجبر أحد على فعل شيء ثم عوقب على ما أجبر على فعله، لكان هذا ظلم له وجور عليه، ولا يقع مثل هذا إلا من ظالم جائر، فتعالى الله الملك الحق، عمّا يقوله الظالمون علواً كبيرا، وتعالى الله الملك الحق، الذي قال في الحديث القدسي: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا".

رواه مسلم.

فإن كان الجبرية يكفّرون القدرية لقولهم في القدر، فالجبرية والله أشد كفراً وضلالاً، لشناعة قولهم وقبحه، ولولا الإعذار بالجهل والخطأ، لما ضلوا فيه من متشابه الآيات، ومشكل الأحاديث، لحكمنا عليهم بذلك، والله هو من يتولّى السرائر.

والله أعلم.

المسألة الثانية عشر في بيان بعض الآيات المتشابهات

لعل البعض يشتبه عليه بعض ما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات، فيظنها دليلا على الجبر.

فمنها قوله تعالى مخبراً عن إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

فزعموا أنه وبدلالة هذه الآية، أن الله تعالى أجبر إبليس على الغواية والكفر!

وهذا القول بيّن البطلان، وقد بيّنت سابقاً أن الفسق والطاعة، صادرة ابتداءً من نفس العبد، وأن الله تعالى لا يضل إلا الفاسقين، ولا يهدي إلا من أراد الهداية، بل ربما يهدي بعض من لا يريد الهداية لسبب يعلمه سبحانه، رحمة منه وفضلا، فليس في هذه الآية دليل للجبرية، إنما الله علم ما في نفس إبليس من الفسق والفجور والكفر والطغيان والكبر، فحرمه الامتثال لأمره، بالسجود لآدم، لأنه لا يستحق ذلك، عدلاً منه سبحانه وتعالى، ولو كان إبليس خيّراً مطيعاً قانتاً لله تعالى لما حرمه الله السجود لآدم طاعة له سبحانه، بل لربما لو كان إبليس مثل باقي الملائكة في طاعته لربه وقنوته وصلاحه، لربما تغيرت المقادير بالكلية، وكان للتاريخ وجه أخر غير هذا الوجه.

فتبين بذلك بطلان احتجاجهم بهذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات]

ومعنى الآية، أن المشركين، لن يُضِلّوا بدعوتهم إلى الشرك، إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من الفاسقين، الذين لا يستحقون الهداية، وأن الله تعالى سوف يضلهم عن الحق، عدلاً منه سبحانه.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد]

ومعنى هذه الآية، أن الله يخبرنا أنه ما وقع للمسلمين وغيرهم من خلق الله من مصائب، إنما وقع بعلم من الله تعالى، وأنه هو من أذن بوقوعه عليهم، فيكون لهم فيه منفعتان:

الأولى: أجر ينالونه من الله، فلا ييأسوا بما فاتهم من الدنيا بسبب مصابهم، لأن أجرهم عند الله في الأخرة أعظم.

والثاني: أن في ذلك تأديب للمسلمين، وترويض لنفوسهم على التواضع، وتهذيب لنفوسهم من الكِبر، ومعنى قوله: "ولا تفرحوا" أي: ولا تفخروا وتتكبروا، فالفرح المراد به هنا هو الفخر والكِبر، لذلك قال بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾ [النمل]

ومثل قوله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

ومثل قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾ [غافر]

ومثل قوله تعالى في سورة غافر أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣)﴾ [غافر]

ومثل قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَة فَرِحُوا بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم]

فالفرح المراد به في هذه الآيات، هو الكِبر.

فالفرح، منه ما هو مباح، ومنه ما هو محرّم، فالفرح المباح، هو الفرح الذي ليس فيه تكبّر ولا فخر ولا تجبّر على الناس.

وقد يشتبه عليهم أيضا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىا مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤)﴾ [آل عمران]

قلت: والذي يظهر لي، أن معنى "كتب" في الآية، أي: أجبر، وفرض.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٓ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَة□ وَرَحْمَة وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِير مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾ [الحديد]

فمعنى "كتبناها" أي: أوجبناها وفرضناها.

فمعنى الآية: أن الله تعالى يقول: لو أردت أن أوجب القتل على هؤلاء القتلى، في الزمان والمكان اللذين قتلوا فيهما، لبرزوا إليه، وإن لم يكن هناك حرب ولا قتال.

وكون الله تعالى ينوع الموت على عباده في الأزمنة والأمكنة، فذلك لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى، حتى لا يغتر الإنسان، بل يستمر في العمل، على كل حال، وفي وكل زمان وكل مكان.

والله أعلم.

المسألة الثالثة عشر في بيان بعض الأحاديث المشكلات

الحديث الأول: عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا".

رواه مسلم.

قلت: إن كان أراد بقوله: "طبع كافراً" أي: أنه فطر على الكفر، فهذا بلا شك حديث باطل. لمخالفته الصريحة لكتاب الله عز وجل وللأحاديث الصحاح الأخرى، التي وردت في أن الإنسان يولد مفطوراً على الإسلام والتوحيد والإيمان.

وإن كان أراد بقوله: "طبع كافراً" أي: أن الله تعالى علم أنه سوف يطبع على الكفر عندما يكبر، فهذا حقّ.

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ (١٠١)﴾ [الأعراف]

وتنبه أن الله لم يقل: (كذلك طبع على قلوبهم ليكونوا كافرين)

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾ [الروم]

وتنبه إلى أن الله تعالى لم يقل: (يطبع على قلوبهم لكيلا يعلمون)

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر]

وتنبه إلى أن الله تعالى لم يقل: (كذلك يطبع الله على قلوبهم ليكونوا متكبرين متجبّرين)

فحديث أبي بن كعب بهذا المعنى صحيح.

وهذه المعاني فيها الرد على الجبرية، لأن الله لم يطبع على قلوبهم، حتى صدر الشر من أنفسهم، فالطبع على قلوبهم جاء بعد كفرهم وجهلهم وإعراضهم عن العلم وتكبّرهم وتجبّرهم.

ثم إن هذه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانا وَكُفْرا﴾ [الكهف] وليس للجبرية فيها حجة، لأن هذا الصبي لو عاش حتى يكبر لاختار وشاء أن يسلك طريق الشر والباطل والمعصية، فيأذن الله له بذلك، ويشاءه له، فيضله الله تعالى، ويطبعه على ذلك، فالله لا يضل إلا الفاسقين كما قال سبحانه وتعالى.

والطبع هو الختم، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم (٧)﴾ [البقرة]

وهو القفل الذي يضعه على قلوب العصاة من عباده، حتى يدعوا عنهم الكبر والطغيان، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤)﴾ [محمد]

مع العلم أن الله تعالى لم يبيّن لنا في الآية ما مراده بالطغيان والكفر الذي سوف يصدر من ذاك الغلام، فقد يكون المراد به الطغيان والكفر المخرج من الإسلام، وقد يكون الطغيان والكفر، طغيان العقوق وكفر نعمة الوالدين، أي أن الصبي قد يعيش مسلماً عاصياً عاقّاً لوالديه طاغٍ في ذلك، كافراً لنعمتيهما.

الحديث الثاني: عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي، معاوية. قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودات، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرا وأفضل". قال: وذكرت عنده القردة. قال مسعر: وأراه قال: والخنازير من مسخ. فقال: "إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقبا. وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك".

رواه مسلم.

قلت: وهذا حديث متنه مشكل، لأن أوله ينقض أخره، وأخره ينقض أوله، فإن كان نهي النبي لأم حبيبة أن تدعو بطول الأجل وزيادة الرزق لأنها مقدرة، فكيف أجاز أن تدعو بأن يعيذها الله من عذاب في النار وعذاب في القبر، وهي مقدرة أيضاً! وإن أجاز أن تدعو أن يعيذها الله تعالى من عذاب في النار وعذاب في القبر، وهي أمور قد قدرها الله تعالى، فكيف لم يجز أن تدعو له ولوالدها ولأخيها بطول العمر!

وهذا دليل كاف على بطلان هذا الحديث، لأنه ما من شيء إلا وقد قدره الله تعالى، حتى عندما ترفع يديك إلى جهة السماء، وتدعو الله تعالى ثم يستجيب لك أو لا يستجيب، هو من أقدار الله تعالى.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه دعا لأنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: "اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته".

رواه البخاري.

وفي رواية مسلم، عن أنس أنه قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا لي بكل خير، فكان في آخر ما دعا لي: "اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيه".

وفي رواية بإسناد حسن، أنه قال: "وأطل عمره".

رواه البخاري في الأدب المفرد.

فكان أنس من أكثر الصحابة مالاً وولداً، وأطولهم عمراً، حيث لم يمت إلا بعد أن بلغ مائة سنة، وكان أخر صحابيٍّ مات بالبصرة.

فإن كان النبي هو قائل هذا الحديث الذي رواه ابن مسعود كما يزعمون، فكيف دعا لأنس بن مالك، حتى كان من أطول الصحابة عمراً وأكثرهم مالاً وولداً.

وأين راوي هذا الحديث عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدعو فيه ربه ويقول: "اقض عنا الدين وأغننا من الفقر".

رواه مسلم.

وأين راوي هذا الحديث، من الحديث القدسي الذي قال الله تعالى فيه: "يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم".

رواه مسلم.

كل ذلك رواه مسلم راوي حديث عبدالله بن مسعود!

وقد اجتهد بعض المتفقهة ليجمعوا بين الأحاديث التي ورد فيها جواز الدعاء بطول العمر وسعة الرزق وبين حديث عبدالله بن مسعود، فلم يصنعوا شيئاً، حيث أتوا بتأويلات كلها باطلة بيّنت البطلان.

والحقيقة أن الأجل والرزق، منها ما هو مقسوم، ومنها ما هو فضل من الله يؤتيه من يشاء، وكل ذلك واقع بعلم الله تعالى الذي علم كل شيء، ودونه في اللوح المحفوظ.

وتلك الأحاديث الصحاح، تشهد ببطلان حديث عبدالله بن مسعود، أو أن الرواة وهموا فرووا الخبر على غير ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم، قال: قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني – أو قدره علي قبل أن يخلقني – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى".

رواه البخاري.

قلت: وهذا حديث مشكل أيضاً، فهذا آدم عليه السلام نفسه، في حديث الشفاعة الطويل، وهو حديث صحيح، يقول للناس: "وهل أخرجكم من الجنة إلّا خطيئة أبيكم".

رواه البخاري ومسلم.

فها هو هنا يلقي باللوم على نفسه، ولم يعذر نفسه بالقدر!

وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى عن إبليس أنه يقوم خطيباً يوم القيامة، فيقول للناس: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا

أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم ٢٢]

ولكنه لم يتعلل بالقدر ويقل للناس: "هذا أمر قدره الله عليّ وعليكم قبل أن يخلقنا فلا تلوموني ولا تلوموا أنفسكم"!

وقد ذكر الله لنا أيضاً أن الأتباع من المشركين يلومون سادتهم المتبوعين، ولم يذكر عن أيّ منهم أنه تعلل بالقدر، وقال: هذا أمر قدره الله علينا قبل أن يخلقنا فلا تلومونا على دعوتنا لكم ولا تلوموا أنفسكم على قبول دعوتنا لكم!

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يزعمون أنه أخبرهم بمحاجات آدم لموسى، صحّ عنه أنه وبّخ رجالاً على أخطائهم، ولام أخرين، ولم يعذرهم بالقدر!

فقد وبّخ معاذاً لما كان يطيل الصلاة بقومه وقال له: "أفتان أنت يا معاذ". رواه البخاري.

ووبّخ الرجلان اللذين شربا من عين تبوك، وكان قد نهى أن يمسّوا من مائها شيئا حتى يكون هو أول من يرده. رواه مسلم.

بل لو عرض العبد على ربه، وسأله الله عمّا اقترفه من ذنوب ومعاصي، فقال العبد لربه: لا تلمني يا ربّ على أمر قدرته عليّ قبل أن تخلقني. فعند هؤلاء، أن الحجة سوف تكون للعبد على ربّه، ولا أرى أسخف من هذا القول، ولا أبعده من الصواب!

بل حتى الناس، بعقولهم الصحيحة، وفطرهم السليمة، لم يعتذروا قط بالقدر فيما يقع منهم من أخطاء، ويقترفونه من جرائم، وما ينتج عن ذلك من آثار، ولا احتجوا به ليدفعوا به اللوم عن أنفسهم، فلم نجد أحداً توقف عن توبيخ المخطئ لقيامه بعمل

خاطئ، ولا توبيخه على ما نتج من خطئه، متعللاً بالقدر، ولا المخطئين اعتذروا بالقدر، لعلمهم أن ما وقع منهم وقع باختيارهم واجتهادهم وكسبهم!

إنما كانوا يحتجون بعدم وقوع الشيء بتعلقه بمشيئة الله تعالى، فيقولون: لو شاء الله لفعلنا ولو أراد الله لكان كذا، وليس في هذا أي احتجاج بالقدر، إنما يحتجون بأن الله لم يأذن لهم في فعل ما أرادوا فعله، مما قد يجلب لهم الخير أو يدفع عنهم الشر، لا أنهم يحتجون على أخطائهم ونواتجها بالقدر!

حتى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان".

رواه مسلم.

ليس فيه الاعتذار بالقدر على ما يقع من الإنسان من أخطاء وجرائم، بل فيه مواساة للنفس، في عدم بذل السبب الصحيح الذي يجنّب العبد ما يكره، ويبلِّغَه ما يريد، بأن الله تعالى علم أنك سوف تخطئ السبب الذي يجنبك ما تكره، ويبلِّغَك ما تريد، ومع ذلك لم يهدك إليه لحكمة يعلمها، قد يكون بسبب ذنب وقعت فيه، فأراد أن يطهرك منه، أو أنه شرٌّ تظنه أنت خير فأراد أن يجنبك إيّاه، رحمة منه بك، إلى غير ذلك من الأسباب، التي تدفع المؤمن إلى الاطمئنان والهدوء، ولا يُفْرِح المؤمن الشيطان بما يقع في نفسه من أسى وحسرة وتندُّم.

ولكن لا ينبغي لأحد أن يتعلل بالقدر فيما يقع منه من أخطاء وجرائم، لأنها إنما وقعت منه باختياره ومشيئته، بل عليه أن يلوم نفسه على ما وقع منه وما وقع عليه من العقوبة بسبب ذلك، وأن يندم ويتوب إلى الله تعالى، على ما اقترفته جوارحه.

كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَة فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدا (٧٩)﴾ [النساء]

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَة فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِير (٣٠)﴾ [الشورى]

فلو كان القدر عذراً وقاطعاً لقول الموبّخ، ما كان على مخطئ من سبيل! فلا إبليس بملوم ولا دعاة الكفر والشر بملومين، ولا اللوطي ولا الزاني ولا القاتل ولا السارق بملومين، لأنهم إذا ليموا كما لام موسى آدم في هذا الحديث، فسوف يجيبون لائمهم كما أجاب آدم موسى بأن هذا أمر قدره الله عليهم قبل أن يخلقوا! وسوف تكون الحجة لهم، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يوبخهم ولا يعاتبهم على أمر قد قدره الله عليهم قبل أن يخلقوا!

ونحن لا نشك أن الله قدر هذا كله، ولكن كيف يحتج محتج بالقدر، والقدر إنما هو علم الله لما سوف يقع في المستقبل من الحوادث، فلم يجبرك الله على شيء، إلا ما شاء، ولم يمنعك عن شيء، إلا ما شاء. وإنما وقع ما وقع منك، بمشيئتك واختيارك، ولا حجة لك في القدر.

فهذا الحديث إما أن يكون له تأويل صحيح لم نصل إليه، أو أنه باطل، وأنه من وضع بعض الرواة، كمثال ليجد لآدم عليه السلام عذراً يدفع به اللوم عنه، فوهم الرواة في رفعه، وظنّوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله.

وقد قرأت في كتب التاريخ، أن إسناد هذا الحديث من أصحّ الأسانيد، والجواب على ذلك: أن من حكم لهم أهل الحديث بأنهم ثقات، بشرٌ مثلنا، يجوز عليهم الخطأ، كما يجوز على غيرهم، وهم وإن كان أكثر ما يروونه صواب إن شاء الله، إلا أن وقوعهم في الخطأ وارد.

والله أعلم.

المسألة الرابعة عشر عن الحياة والموت

اعلم أن الأصل في الإنس والجن والدواب، أن تعيش حتى تهرم، وتصبح أجسادها غير قابلة للحياة، وهنا يكون الموت جبراً لا اختياراً.

ولكن مع ذلك، نجد أن هذه المخلوقات، قد تموت في بطون أمهاتها، وقد تموت أثناء الولادة، وقد تموت أطفالاً، أو غلماناً، أو شباباً، أو راشدين، أو كهولاً. ليس هناك سِنٌّ منضبط للحياة والموت.

فلما نظرت في ذلك وتمعّنت فيه، وجدت أن لذلك أسباباً شتّى، منها أسباب دنيوية، ومنها أسباب دينيّة.

وسوف أقتصر في الحديث هنا على الإنس، وما أقوله عن الإنس ينطبق على الجن والدواب.

فهلاك الأجنّة — والحديث هن عن الأجنّة التي نفخت فيها الروح - إما أن يكون بسبب دنيوي، ويكون ذلك بسبب ضعف رحِم أمّه، فإن كان الرحِم ضعيفاً، والأم لا تمتنع عن القيام بالأعمال الشاقة، سقط الجنين بفعل الجهد الذي أصاب الرحِم، وإن كان الرحِم شديد الضعف، سقط الجنين بأدنى سبب، وقد يكون هلاكه بسبب ديني، فقد تكون أمه أو أبوه ارتكب خطيئة، في زمن حمل الأم بالجنين، فحُرِم بسببها هذه النعمة، فهلك الجنين في بطن أمه.

وأما هلاك الأطفال، فإما أن يكون بسبب إهمال الوالدين لرعايتهم صحيّاً، فيهلكون، فيكون السبب دنيويّاً، أو يكون الوالدين أو أحدهم اقترف ذنباً، استحق عليه العقوبة المعجّلة، فحرم هذا الطفل وهذا الغلام، وقد يكون هذا الذنب عامّاً، أي: أن البيئة التي يعيش فيها هذا الطفل أو هذا الغلام، بيئة سوء، فاستحقت العقوبة

المعجلة من الله، فسلّط عليهم إمّا طاعون يفتك بهم، أو يسلط عليهم عدواً يستحل دمائهم، ويهلك فيها الطفل والغلام، مع الشاب والراشد والكهول. لأن العقوبة إذا نزلت نزلت على الجميع، ثم يبعث الله الناس على نيّاتهم.

كما نزل العقاب بقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، أخذ العذاب كبيرهم وصغيرهم، أجنة وأطفالا وغلمانا وشبابا وراشدين وكهولا.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم".

رواه البخاري ومسلم.

فإذا كانت العقوبة حلّت بمن مع الجيش وهو ليس منهم، فكذلك العقوبة إذا حلّت بقوم، هلكت فيها الأجنة والأطفال، لأنهم في حكم من ليس من القوم، فهو لم يفعل فعلهم بعد، ولم يظهر منه ما يدل على موافقتهم.

فإن قال قائل: فلو كان والديه صالحين، في مجتمع سوء؟ فالجواب: أن والديه لم يبذلا السبب في النجاة من عذاب الله الذي حلّ بقومهما، فكان يجب أن يخرجوا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى قرية أخرى.

فيكون سبب هلاك الأجنة والأطفال، هو والديهم ابتداءً، بسبب تقصيرهم بالأخذ بالأسباب الدنيويّة والدينية.

وأما هلاك الغِلمان والشباب والراشدين والكهول، فقد يكون بسبب عدم اهتمامهم بالأخذ بالأسباب التي تقيهم الهلاك، أو تقصيرهم في الأخذ بها، وهي الأسباب الدنيوية، وقد يكون بسبب إهمالهم أو تقاعسهم في الأخذ بالأسباب الدينية.

فتجد الغلام أو الشاب أو الراشد أو الكهل، لا يأخذ بالأسباب الدنيويّة، التي تقيه من الأمراض، أو تقيه من التعرّض للمهالك، فيكون في ذلك هلاكه. أو لا يأخذ بالأسباب الدينيّة، فتجده يتعرّض لمساخط الله تعالى، ولا يقدم ما يدفع به غضب الله عليه، فتجده لا يتصدّق ولا يصل رحِمه، فيقصم الله عمره، سواء كان غلاماً أو شاباً أو راشداً أو كهلاً.

فقد يسلط الله عليه مرضاً، أو حادثاً من الحوادث يتلف فيها.

وإذا كانت الأسباب الدينيّة عامّة، فيكون المجتمع مجتمع يغلب عليه السوء، فيسلّط الله تعالى عليهم مرضاً يفتك بهم، أو يسلّط عليهم عدوّاً يستبيح دمائهم.

أو قد يكون سبب هلاك الغلام، هو أن الله تعالى يعلم أن هذا الغلام لا خير فيه لوالديه، ويكون والداه صالحين.

وقد يكون سبب هلاك الشاب أو الراشد، عقوقه لوالديه أيضاً، ويكون والداه أيضاً صالحين، فلصلاح والديه، ورحمته بهما، ويكون ابنهم قد بلغ من العقوق مبلغاً عظيماً، فيقصم الله عمر ابنهم، في أي مرحلة عمريّة كانت، ليريحهم منه.

وهلاك الغلام أو الشاب أو الراشد، بسبب رحمة الله تعالى لوالديهم، لا يكون عادة إلا إذا كان والداه صالحين، أما إن كان والداه مهملين، وقليلو تقوى الله تعالى، فعادة يكون عقوق ابناءهم لهم بإذن من الله تعالى، كعقوبة معجلة.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰما فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسا زَكِيَّةَۢ بِغَيْرِ نَفْس لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرا (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانا وَكُفْرا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرا مِّنْهُ زَكَوٰة وَأَقْرَبَ رُحْما (٨١)﴾ [الكهف]

فكان سبب هلاكه، أن الله تعالى علم في سابق علمه، أن هذا الغلام سوف يكون عاقّاً لوالديه عقوقاً شديداً، فأمر نبي الله الخَضِر بأن يقتله ويريحهم منه، حتى يبدلهم خيراً منه، يكون باراً بهما، رحيما بهما.

وتمعّن في قوله تعالى: ﴿أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ تدرك يقيناً أن إهلاك الله تعالى للأبناء، سواء قبل وقوع العقوق منهم أو بعده، إنما يكون لأجل الأبوين المؤمنين، أي: الصالحَيْن المتَقِيين، فيخرج من ذلك العصاة من المسلمين والكفّار.

وقد يكون سبب هلاكه في وقت مبكرٍ من عمره، أمر حسن، وليس بقبيح، إذ قد يكون سبب هلاكه أنه عرّ نفسه للهلاك في سبيل الله تعالى، جهاداً في سبيله، لإعزاز دين الله تعالى ونشره.

فإن قال قائلٌ: هان نحن نرى الرجال يقاتلون، في حق أو باطل، وبعضهم يتفانى في القتال، ومع ذلك لم يمت في معركة، بل مات على فراشه، وقد لا يموت إلا هرماً.

والجواب على ذلك: أن الله تعالى أبقاه لحكمة، فقد يكون سبب إبقاء الله تعالى له، لكي يخبر عباده أنه ليس كل من قاتل وتفانى في المعركة يقتل، وأن الأعمار بيده، يطيل عمر من يشاء، ويقصم عمر من يشاء، فليست الأسباب هي المتحكمة، بل رب الأسباب، إن شاء أثّرت الأسباب بإذنه، وإن شاء لم تؤثِّر، فيتعلّق الناس بالله تعالى، وليس بالأسباب.

ومثل ذلك الأمراض والحوادث، التي يتلف فيها كثير من الناس، ولا يتلف فيها أخرون، وبعض عباد الله يطول عمره إنما الحكمة الظاهرة من ذلك، أن يبيّن الله تعالى لعباده، أنه هو المتحكم في الأمور، إن شاء أثَرت الأسباب بإذنه، وإن شاء لم تؤثِّر.

وأما من بلغ سِن الهرم، وهلك هرماً، فهذا مات، لأنه استوفى الأجل الذي كان ينبغي لكل إنسيٍّ أن يبلغه، ويكون هذا الرجل، قد بذل الأسباب الدينية والدنيويّة لكي يعيش هذا العمر المديد.

فأما بذله للأسباب الدنيوية، فتجده حريصاً على صحّته، فيتجنب ما قد يلحق الضرر بجسده، ويصيبه بالأمراض، كما يبذل الأسباب التي تجنّبه الحوادث التي يعطب بها الجسد.

وأما بذله للأسباب الدينية، فتجده يتصدق ويصل رحِمَه، أو على أقلّ تقدير، لم يفعل فعلا يسخط الله تعالى عليه، فيقصم به عمره.

ومع ذلك كله، فقد تجد شخصاً بذل جميع الأسباب الدنيوية والدينية، ومع ذلك قصر الله عمره، فهلك شاباً أو راشداً، وذلك أن الله تعالى، علم أن طول الحياة لا يصلح له، فبرحمته له، قصر في عمره.

وتجد شخصاً طال عمره، فلم يمت إلا كهلا، وهو قد يبذل الأسباب الدنيوية، وقد لا يبذلها، ولكنه يتعرّض لمساخط الله تعالى، فهذا الذي لم يرد الله تعالى أن يفلته يوم القيامة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته". قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَالِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]

إذا، قد يكون طول عمر الإنسان أو قصره، لأسباب دنيوية، أو أسباب دينيّة، ويبقى العلم والحكم لله وحده.

فإن قال قائل: هؤلاء الإنس والجن يجري عليهم ذلك، فما بال الدواب؟ والجواب: لأن الدواب تخطئ كما يخطئ الإنس والجن، وينالها من عقاب الله في الدنيا، ما يناله الإنس والجن.

والله أعلم.

المسألة الخامسة عشر عن الأرزاق

اعلم أن الأصل في الأرزاق، ألا يعطى المسلم منها إلّا الكفاف، بينما يعطى منها الكافر ما يشاء، ولكن علِم الله تعالى، أنه لو فعل ذلك، لكفر المسلمون جميعاً، إلا من شاء الله تعالى، طمعاً في الغِنى والنعيم الدنيوي، الذي سوف يناله الكافر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف]

فالسبب الذي من أجله كافئ الله تعالى بين الفرص، للمسلم والكافر، والصالح والفاجر، هو رحمته بالمسلمين، حتى لا يغترّوا بالدنيا، لذلك جعل في الكفار أغنياء وفقراء، وفي المسلمين كذلك.

ولغني العبد، مسلما أو كافرا، صالحا أو فاجرا، أسباب، قد تكون أسباب دنيويّة، وقد تكون أسباب دينيّة.

فقد يكون العبد مقصِّراً في البحث عن الرزق، فلم يأخذ بالأسباب الدنيوية للحصول على الرزق، فيكتفي بالعمل القليل، أو لا يعمل فكره للحصول على المال، فإذا أعملت فكرك جيّداً للحصول على المال، وبذلت من العمل ما يكفي في ذلك، قد يمنحك الله تعالى المال بحيث يهيئ لك مصادره، بسبب بذلك للأسباب الصحيحة لنيل المال. وأما إن كانت فكرتك غير مجدية، أو لم تبذل ما يكفي من العمل، فقد يحرمك الله المال، بسبب ذلك، فلا يهيئ لك مصادره، أو يمنحك القليل من المال، بحسب عملك الذي عملت.

وهذا في حقّ المسلم والكافر، والصالح والفاجر.

ولكن لو حصلت على عمل لا يدر إلا القليل من المال، أو كانت فكرتك للحصول على المال جيّدة، وبذلت العمل الكافي لنجاحها، ومع ذلك حرمت المال، فهناك أسباب لهذا الحِرمان:

أولها: أنك اقترفت ذنوباً حرمك الله بسببها فرص العمل التي تنال به المال، أو أضلك عن التفكير في الوسائل الناجحة للحصول على المال، أو جعلك كسولا عن العمل الذي يجعل من فكرتك ناجحة، وهذا للمسلم والكافر، الذي يواقع الذنوب كثيراً.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر".

رواه احمد وابن ماجه، بسند صحيح.

وثانيها: قد تكون لديك فكرة ناجحة، ولديك الاستطاعة على القيام بالعمل الكافي لنجاحها، ولكن الله تعالى لخصيصة فيك، لم يمنحك سوى القليل من المال، فقد تكون رجلاً صالحاً والمال الكثير يفسدك، فمهما اجتهد لا يمنحك الله إلا القليل منه، رحمة بك. وهذا إنما يكون للمسلم الصالح، وليس للكل بل للبعض.

وثالثها: أو أنهم يكثرون من الأعمال التي تزيد في رزق العبد، ككثرة الاستغفار، أو صلة الأرحام، أو كثرة الصدقة.

﴿فقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّار□ا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّات وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح]

وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه".

رواه البخاري.

وليس هذا للمسلم، بل حتى الكافر، الذي يعمل الخير للناس، يناله أجره في الدنيا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا، وأما المؤمن، فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته".

رواه مسلم.

ورابعها: أن الله تعالى قضى أن لا بد أن يكون في الناس فقراء، طبقة كادحة، وأيدي عاملة، لتقوم بالأعمال التي تحتاج إلى مشقة، فيجعل في المسلمين والكفار فقراء ومساكين، ليضطروا إلى القيام بتلك الأعمال، وإلا لم يوجد من يقوم بها، فتتعطل مصالح الناس، وتفسد حياتهم، فهو ينتقي سبحانه من خلقه من يكون فقيراً، بناء على مشيئته واختياره.

قال تعالى: ﴿أَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَواةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضا سُخْرِيّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْر مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

وأما إذا لم تبذل جهداً للحصول على عمل، أو لم تكن لديك فكرة ناجحة للحصول على المال، أو كان لديك فكرة ناجحة، ولم تبذل الجهد الكافي لنجاحها، ومع ذلك يهبك الله مالا كثيرا، فهذا لخصيصة فيك، فقد تكون رجلا صالحا، وقلة

المال تفسدك، فأعطاك منه رحمة بك، وهذا أيضا، إنما يكون للمسلم الصالح، وليس للكل بل للبعض، وقد تبذلك جميع الأسباب السابقة، ويهبك الله مالاً كثيراً، ويكون السبب في ذلك اجتماع الأسباب التي جعلت الله تعالى يمنحك المال الكثير.

وللحصول على المال طريقان: طريق أباحه الله، وطريق حرّمه الله، فكل من سلك طريقاً من هذه الطرق، فسوف يحصل على المال، قليلاً كان أو كثيرا، بل ربما يكون ما تحصل عليه من المال من الطريق المحرّم، أكثر بكثير من الطريق الذي تحصل عليه من الطريق المباح، ليمتحن الله عباده، وصبرهم من أجل مرضاته.

وقد يكون العبد غنياً من الكسب الحرام، فإذا تاب وأراد الكسب الحلال، ضيّق الله عليه، وربما جعله فقيراً، ابتلاء وامتحاناً منه للعبد، فإذا صبر كان جزائه عند الله عظيما، إما في الدنيا أو في الأخرة، وإن لم يصبر وانتكس، كان ذنبه على جنبه.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

فإذا وجدت الإنسان يبذل القليل من الجهد، ولم تكن لديه فكرة ناجحة للحصول على المال، أو كان لديك فكرة ناجحة، ولم تبذل الجهد الكافي لنجاحها، أو قد يبذل الجهد للحصول على عمل، أو لديه فكرة ناجحة، وبذل الجهد الكافي لنجاحها، ولكنه مقيم على ما يسخط الله تعالى، أو تكون فكرته وعمله لجمع المال، من الطريق المحرّم، ثم مع ذلك، تجد الله تعالى يغدق عليه الأموال، فاعلم أن الله تعالى قد أراد به سوءا يوم القيامة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته". قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَالِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]

رواه البخاري ومسلم.

وانظر إلى أن النبي قال: "الظالم" ولم يقل "الكافر" فيدخل في الظالم، كل من ظلم نفسه أو ظلم غيره من مسلم أو كافر. ففي المسلمين عصاة وفجاراً كما الكفّار تماماً.

وقد تكون لأسباب الدنيوية والدينية، هي سبب حرمانك من الرزق بالكليّة، ويكون في ذلك جوعك وسبب موتك، فيكون سبب موتك، هو أنك لم تبذل الأسباب التي تجعل الله يمنحك الرزق الذي ينقذك من الهلاك، فتموت قبل أن تهرم

ومع ما ذكرناه من العِلل، إلا أنه قد يكون هناك عِلل أخرى لا نعلمها، الله يعلمها.

لذلك عندما ترى مسلماً فقيراً أو غنياً، سواء كان تقياً أو فاجراً، فاعلم أن هناك سبب لفقره أو غناه، قد تكون أسباب دينية أو أسباب دنيوية.

وكذلك إذا رأيت كافراً فقيراً أو غنياً، سواء كان صالحاً في نفسه أو فاجراً، فاعلم أن هناك سببا لفقره أو غناه، قد تكون لأسباب دينية أو أسباب دنيوية.

وبالتالي فليس هناك سبب معيّن لفقره أو غناه، والله وحده هو من يعلم، لماذا أفقر ذاك المسلم أو ذاك الكافر، ولماذا أغنى ذاك المسلم أو ذاك الكافر.

الشيء الوحيد الذي نعلمه، أن الله تعالى كافئ بين الفرص، رحمة للمسلمين.

والله أعلم.

المسألة السادسة عشر في عقاب الله تعالى لعباده في الحياة الدنيا

وهو أن الله تعالى قد يعاقب عباده في الدنيا، مسلمهم وكافرهم، إذا كثر فسقهم وفجورهم، لينتبهوا ويرتدعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)﴾ [الأنعام]

ولكن أكثر الناس لا يعلمون، بل يستمرون في غيهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف]

فكل شر من وباء أو فقر أو خوف، فسببه ذنوب بني آدم، حتى الفساد الذي يصيب دواب البر والبحر وأشجارها، سببه ذنوب بني آدم.

فإذا وقع العقاب عليهم، قالوا: قد مسّ آباءنا السرّاء والضرّاء، أي: هذا أمر طبيعي، وليس عقوبة من الله تعالى، ولا يزال هذا حال الناس إلى اليوم، رأيناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا، وكثيرٌ منهم يقولون: نحن مسلمون، ومع ذلك إذا قال أحد الوعّاظ، أن ما يقع من الشرور والفساد في الأرض، هو بسبب ذنوب العباد، سخروا منه!

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ [الروم]

ذلك أن هذا الكون بما فيه، إنما وضع لبني آدم، فما يلحقه من فساد، ضرره على بني آدم، وما يلحقه من صلاح، خيره لبني آدم، فكان ما يقع فيه من الفساد عقوبة لبني آدم.

وهي تطهير للمسلمين أيضاً، فإن ما يلحقهم من الضرّ، يكفر الله بها من خطاياهم، ويخفف بها من أوزارهم، وفي ذلك رحمة لهم لو كانوا يعلمون.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه".

رواه البخاري.

وعن صهيب الرومي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له".

رواه مسلم.

وعقوبة الله تأتي في صور ظواهر طبيعية، كالزلازل، والأعاصير، والأغبرة، والبراكين، والفيضانات، وكثرة الحشرات المؤذية، وانتشار الأمراض والطواعين، وقلة الأمطار، وكثرة الحروب، والفقر والمجاعات. كلها تقع بأمر من الله تعالى عقوبة للناس.

فإن الله تعالى، هو من يسلط الناس على الناس فيحارب بعضهم بعضا، ولو كفوا عن عمل الشر، لكف الله بعضهم عن بعض، بل لربما صاروا أحباباً وإخواناً!!

وقد حكم الله تعالى أن العذاب إذا وقع على الناس عمّ المفسد والمصلح إذا كان المصلح مقيماً بينهم.

عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف". قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا ظهر الخبث".

رواه الترمذي.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم". قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: "يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم".

رواه البخاري.

فدل هذا الحديث، أن العقاب إذا وقع على قوم شمل كل من كان في ناديهم، ولكن الله يبعث كلّاً على نيّته.

وهذا ما يفسر لنا كيف أن الأوبئة والحروب والمجاعات إذا وقعت في الناس شملت كل أحد، حتى الأطفال ومن لا ذنب له، بل قد تأخذ بعض المصلحين وتترك بعض المفسدين، وذلك أن هذه الدار ليست دار مقام، بل دار ممرّ، والله إنما ينزّل العقاب تخويفاً لعباده، فيقع على بعض المصلحين، فيكون فيه كفّارة له، ويترك بعض المفسدين لعله يرجع ويتوب، فإن لم يرجع ويتوب، كان هذا زيادة في حجج الله عليه، وزيادة في عذابه يوم القيامة، ويذهب فيها الأطفال لأسباب عديدة، قد ندرك الحكمة من ذلك وقد لا ندركها.

والخلاصة: أن الله ينعم على الجميع المسلمين والكفار، ولكن أحيانا قد يوقع عليهم شيئاً من العقوبة، للتنبيه والتذكير والموعظة، فكل بلاء يقع على الناس فبسبب ذنوبهم، وكل خير يقع عليهم فهو من فضل الله عليهم.

والله أعلم.

المسألة السابعة عشر عن سنن الله الكونيّة

الله تعالى بنا هذا الكون على قوانين وأنظمة محكمة، منها، أن الحساب والجزاء إنما يكون يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّة وَلَاكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَل مُّسَمّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾ [النحل]

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّة وَلَاكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَل مُّسَمّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَا (٤٥)﴾ [فاطر]

ولا ينزل شيئاً من العقوبات في الدنيا، إلا للتنبيه والتحذير والتذكير.

فإذا رأيت شخصاً ما ترك شراً إلا وعمله، ومع ذلك تجده في تمام الصحة والعافية، وسعة الرزق، وطول العمر، فاعلم أن الله أراد أن يعذبه عذاباً شديدا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته".

رواه البخاري ومسلم.

وأما إذا رأيته يصيب من العبد في الدنيا، بشيء من البلاء، فاعلم أنه يريد أن ينبهه ويحذره ويذكره، وكان ما يصيبه تكفيرا له من ذنوبه، فإن كان مسلماً كان ذلك رفعة له في درجته إن شاء الله تعالى، وإن كان كافراً، لعله يخفف عنه من عذاب النار.

والله أعلم.

المسألة الثامنة عشر والأخيرة في التسليم لحكم الله تعالى

لا يحق لأحد من خلق الله أن يعترض على الله تعالى في حكمه، لأن الملك ملكه والخلق خلقه والأمر أمره، وهو سبحانه أعدل العادلين، وأرحم الراحمين، لا يعمل شيئاً إلا وفيه رحمة بخلقه، حتى ما ينزله عليهم من العقوبات، وإن كان فيه شرٌّ لأعدائه، العاصين لأمره، المعرضين عن هديه، الآبقين عن طاعته، وهو وحده من يقدر الأمور.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣)﴾ [الأنبياء]

الفهرس